44615 ـ ادعى أنه زنى بامرأة وكان كاذباً

السؤال

أنا أعاني حالة من العذاب الشديد بسبب ذنب ارتكبته في الماضي ولا أعلم كيف أتخلّص منه ، وحياتي تحولت إلى جحيم بسبب هذا الموضوع .
قبل خمس سنوات كنت أعيش حالة من الفراغ الديني ، وكنت مبتعداً عن الله بشكل كبير جداً ، وأنا لدي ابن عم هو الصديق الوحيد لي في هذه الدنيا .
في أحد الأيام ضحك عليّ الشيطان وقمت بإخباره أن لي علاقة محرّمة مع بعض الفتيات ، وأنا في الأساس ليس لي أي علاقة بهن . ولم أكن أعلم عقوبة هذا الذنب وللأسف كنت أعتقد أن الرجولة هي أن تكون لك علاقات مع النساء مثل ما يعتقد أغلب شبابنا اليوم .
ولم يعلم أحد بهذا الموضوع ولم يصل إلى النساء شيء .
وفي رمضان العام الماضي تبت إلى الله وكانت لي علاقة مع بعض النساء عن طريق الهاتف والإنترنت فقمت بإخبارهن بتوبتي وقطعت علاقتي المحرمة معهن ، وشعرت بحلاوة الإيمان التي لم أشعر بها من قبل .
ولكن ما زلت أتذكر ذنبي الذي مضى عليه سنوات ، والأمر يتعلق بأعراض ناس . واستخرت وفكرت كثيراً وما زلت متردداً .
هل أخبر صاحبي بأني كذبت عليه حتى أثبت له براءة هؤلاء النساء مما قلته ، وفي هذه الحالة قد أخسر صديقي الوحيد إذا رأى أنني كذبت عليه ، أو أسكت ولا أتكلّم ؟ ولكن أخشى عقوبة الله على هذه المعصية فماذا أفعل ؟.

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

نسأل الله تعالى أن يغفر ذنبك ، ويستر عيبك ، ويجنبك الفتن ما ظهر منها وما بطن ، أما مسألتك فيتضح الجواب عنها ببيان الأمور التالية :

أولا : يظهر من سؤالك أن من قذفتها بعمل الحرام معها هي امرأة معينة ، تعرفها أنت ويعرفها ابن عمك ، فإن كانت امرأة معينة معروفة ، فهذا قذف منك لها ، وهو من الكبائر المحرمة ، والذنوب القبيحة ، إذ إنه طعن في الأعراض ، وانتهاك لما حرم الله تعالى ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه : (اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات) رواه البخاري برقم 2615 ، ومسلم برقم 89

وكما أنه قذف لتلك المرأة فهو إقرار على نفسك بالزنا ، حتى وإن كنت كاذبا .

أما إن كانت المرأة غير معينة ، أي إنك قلت : فعلت مع امرأة ، وليست هذه المرأة معينة ، فهذا لا يعتبر قذفا لأحد ، لكنه إقرار على نفسك بالزنا تستوجب معه الحد ، ويجب عليك أن تنفيه عن نفسك .

قال في بدائع الصنائع : " لو قال : زنيت بامرأة ولا أعرفها ، صح إقراره ويحد " بدائع الصنائع 7/51

ثانيا : إذا كان تلك المرأة معينة ، وقد تبت وندمت على ما فعلت فإن توبتك أن تكذب نفسك ، فيلزمك أن تخبر ابن عمك بأنك غير صادق فيما قلته ، لأنه لا بد أن تبرئ ساحة تلك المرأة العفيفة ، ولا يحل لك أبدا أن تقدم صداقة ابن عمك على هتك عرض مسلمة .

قال ابن قدامة في "المغني" :

ظَاهِرُ كَلَامِ أَحْمَدَ أَنَّ تَوْبَةَ الْقَاذِفِ إكْذَابُ نَفْسِهِ , فَيَقُولُ : كَذَبْت فِيمَا قُلْت . وَهَذَا مَنْصُوصُ الشَّافِعِيِّ . قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : وَمِمَّنْ قَالَ هَذَا سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ , وَعَطَاءٌ , وَطَاوُسٌ , وَالشَّعْبِيُّ , وَإِسْحَاقُ , وَأَبُو عُبَيْدٍ , وَأَبُو ثَوْرٍ اهـ باختصار .

وروى عبد الرزاق في "المصنف" (5/77) عَنْ طَاوُسٍ قَالَ : تَوْبَتُهُ (يعني من اتهم أحداً بالزنى) أَنْ يُكَذِّبَ نَفْسَهُ .

ثالثا : اعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس) رواه الترمذي برقم 2414 وصححه الألباني ، فهذا الحديث يدلك على أن ما تخافه من سوء العلاقة بينك وبين ابن عمك أمر هين ، فإن من أطاع الله تعالى وأرضاه ، فإن الله يكفيه الناس ، فاحرص على علاقتك بربك أكثر من حرصك على علاقتك بابن عمك ، واعلم أن هذا من الابتلاء الذي يختبرك الله به ، فاقدم على الحق ، وتوكل على الله ، ولا تخش فيه لومة لائم ، وأكثر من الاستغفار والتوبة ودعاء الله عز وجل أن يوفقك لقول الحق ، وأن يؤلف بينك وبين ابن عمك ، فإن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء .

والله أعلم .